الإجابة عن سؤال :

ما دام أمر الإيمان يُحِبُّه الله تعالى

فلِمَ لا يتفضّلُ به على جميع خلقه ؟

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(حول تفسير سورة الحجرات)

من الصفحة ١٠٥ حتى الصفحة ١١٢

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناء على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة

وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام

من موقعه الرسمي والوحيد

WWW.SRAJALDEN.COM

قسم مؤلفات الإمام

ـ المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :

الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

قوله تعالى: ﴿**أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم**﴾.

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى فضله على عباده المؤمنين، ويمتن عليهم بنعمة هدايتهم للإيمان، وهذه النعمة هي المقصودة والمطلوبة المذكورة في قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ أي: وفقتهم للإيمان.

كما أنّه يُشير في هذه الآية الكريمة إلى كرامة المؤمنين على الله تعالى، وعُلوّ شأنهم، وأنّهم هم أهلٌ لهذا الفضل الكبير والنعمة العظمى، لأنَّ الله تعالى عليم حكيم، يضع الأمور في مواضعها، فيضع الفضل في موضعه المستعد له، الذي فيه أهلية.

قال تعالى ـ في أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: ﴿**وألزمهم كلمة التقوى**﴾ وهي لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ ﴿**وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً**﴾.

ويَدخل في هذا من سار على طريقهم، وانتهج منهجهم.

فهو سبحانه عليم بعلمه القديم الذي لا أول له، أنّ

أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هم الأحقاء بذلك، وهم الأهل لذلك، فألزمهم كلمة التقوى الجامعة لكل خير في الدنيا والآخرة، والواقية من كل شر في الدنيا والآخرة.

فإلزامهم إيّاها هو الحكمة، لأنّ الحكمة وضع الشيء في موضعه، وهذا لا يكون إلا عَنْ علم صحيح بمن هو موضعٌ لذلك، ومَنْ هو ليس بذاك فإنّ الحكمة هي تحقيق وتنفيذ مقتضى العلم، وصواب الحكمة تابع لصحة العلم، ولا شك أنّ العلم المطلق الذي أحاط بكل شيء والذي هو لا أول ولا آخر له، وهو لا يتناهى من حيث القدم ولا من حيث البقاء، بل محيط بالأزل والأبد هذا العلم هو لله تعالى وحده، فحكمته سبحانه هي الحكمة الجامعة التي لا تتناهى ولا تضاهى وهي فوق كل حكمة.

ألا ترى الطبيب تكون حكمته على حسب علمه بالطب؛ وحكمته هي وصفه الدواء حيث ما يتطلبه الداء.

وقال تعالى ـ في الكفار أعداء النبي ﷺ: ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾.

وقوله تعالى في آخر الآية: ﴿**والله عليم حكيم**﴾ فيه دفع اعتراض وشبهة قد تَعرض للإنسان **بأن يقول**: ما دام أمر الإيمان وحبه، والرشد وحصوله، كل ذلك من فضل الله تعالى ونعمته فَلِمَ لا يتفضل سبحانه على جميع العباد، **فأجاب** سبحانه بأنه ﴿**عليم حكيم**﴾ ـ أي: هو عليم بمواضع فضله ومواقع نعمته الخاصة وهي الإيمان، فيضع ذلك في موضعه، فحجة الله تعالى قائمة على العباد كما تقدم في قوله تعالى: ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلاً**﴾ الآية.

وهكذا سبحانه هو أعلم حيث يجعل الإيمان ونعمته ومحبته في القلب، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته.

قال تعالى ـ مخبراً عن الكفار ـ: ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله**﴾.

فأجابهم سبحانه: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

وقال تعالى ـ في سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**ولكنْ رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما**﴾.

فهو سبحانه عليم بعلمه القديم من قبل الأزل أنّه لا يليق بختم النبوات، ولا ينبغي ختم النبوة ولا أن يكونَ خاتم النبيين إلا هذا السيد الأكرم والحبيب الأعظم رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

اللهم اجعلنا من أتباعه ومحبيه بجاهه عندك، ومن أنصار دينه وشريعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم بتوفيقك وعافيتك وشفائك.

فالله تعالى هو العليم الحكيم على وجه الإطلاق والإحاطة وعدم النهاية: فكل اعتراض يَصدر عمن يدعي الفهم أو الذكاء أو شيئاً من الحكمة أو الثقافة أو الحصافة؛ كل اعتراض يَصدر من هؤلاء على أخبار الله تعالى أو أحكام الله تعالى وشريعته؛ يقال لصاحبه: أنت أحمق فاقد العقل الكامل والفهم الصحيح، ولو كنت على شيء من الحكمة لما اعترضت، لأنّ حكمتك المزعومة عندك هي جزئية، وأما حكمة الله تعالى فهي الحكمة الكلية التي لا انتهاء لها، وهي تابعة لعلمه المحيط بكل شيء، القديم الذي لا أول له، فاعتراض مُدعي العلم أو الفهم أو الحكمة على الله

تعالى اعتراضه هو حَماقة وأيُّ حماقة، وجنون بل هو أعظم الجنون، وأول أحمق وأعظم سفيه أرعن وبهيم يدعي أنّه فهيم هو إبليس، الذي اعترض على الله تعالى فقال: ﴿**ءأسجد لمن خلقت طيناً**﴾، وقال: ﴿**أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ فاعترض على من أقرّ أنّه خالقه وخالق مداركه وعقله.

فكل اعتراض على الله تعالى في أوامره ومناهيه أو أحكام شرعه ـ كل ذلك صادر عن تلبيس إبليس، فإن اللعين لما توجّه عليه أمر الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام، كَبُر ذلك عليه بسبب أنّه كان مغروراً بعبادته، ومتكبراً، يدعي الفهم الصحيح، والعقل الرجيح، فراح يحكِّم عقله في الأمر بالسجود لآدم عليه السلام، وتجرُّه محاكمته المزعومة إلى أن يقول: هو خير من آدم، بسبب أنّه خلق من نار، وآدم خلق من طين، والنار لطيفة تمتد إلى العلو، والطين كثيف يميل إلى السفل وإلى الأرض، إذاً كيف يخضع ويسجد العالي لمن هو دونه.

قال تعالى: ـ مخبراً عن ذلك ـ: ﴿**قال: ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾.

وفي هذه الآية دليل على أنّ الله تعالى وجّه إلى إبليس أمراً خاصاً أن يسجد لآدم، لا أنه داخل في عموم الأمر للملائكة بالسجود، فإنّ إبليس هو ليس من الملائكة، بل هو من الجن وهم مخلوقون من النار، وأما الملائكة فقد خلقوا من النُور كما جاء في (صحيح) مسلم وغيره كما بينت ذلك في كتاب (الإيمان بالملائكة والكلام على عالم الجن)، ولكن قد استأذن ربه أن يعبد مع الملائكة في السماء الأولى، فأذن الله تعالى له بذلك، وكان ذلك محنةَ له، فدخل عليه الغرور والكبر والدعوى والأنانية فصده

ذلك عن الاعتراف بحقية أمر الله تعالى له بالسجود لآدم، فقد أعماه كِبْر نفسه وأنانيته؛ فكان منه ما كان ـ أعاذنا الله تعالى من شره وشر أعوانه ـ ولذلك وصفه الله تعالى بالإباء والاستكبار والكفر، قال تعالى: ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين**﴾ فكان من الجاحدين المنكرين للحق تكبراً وتجبراً وتعالياً.

ومن هنا يتبين أنّ الكبر ودعوى الفهم قد يَحمل ذلك صاحبه على الكفر وجحود الحق بعد معرفته.

فيقال لإبليس وتلامذته: أدعياء الفهم والفلسفة: إن دعوى إبليس المبنية على محاكمة عقله في أمرٍ توجه إليه من ربه كل ذلك مردود عليه لدى التعقل الصحيح، والتحكم الصادر عن حكمة.

أولاً: إنّ إبليس كان يعترف بأنّ الله تعالى هو ربه وخالقه بدليل قوله: ﴿**خلقتني من نار و..**﴾ الآية، فهو معترف بأنّ الله تعالى خلقه وأعطاه السمع والبصر والعقل، فيقال: كيف يَصح اعتراضه على الله تعالى خالقه، فإنْ كان هذا الإعتراض صادراً عن حكمة كما زعم فَمَنِ الذي أعطاه الحكمة، أليس هو الله تعالى؟، فسبحان الله رب العالمين، أفيعطيه الحكمة وهو سبحانه غير حكيم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل إذا كان إبليس يَدَّعي أنّه صاحب حكمة فالذي خلقه هو الذي أعطاه الحكمة وآتاها لأهل الحكمة، مع أنّها حكمة مخلوقة ومحدودة، كما أنّ صاحبها مخلوق ومحدود وله أول وآخر...

وأما ربُّ العالمين فحكمته ليست مخلوقة ولا محدودة ولا مكتسبة، بل هي صفة من صفاته الذاتية القديمة الواجبة التي لا انتهاء لها، كما أنّ علمه سبحانه كذلك، وسمعه وبصره؛ وهكذا

جميع صفاته، فإنّها واجبة لذاته سبحانه، فحكمة الله تعالى فوق كل حكمة، والحاكمة على كل حكمة ـ إذاً تكون نتيجة ذلك أن اعتراض إبليس على أمر الله تعالى له بالسجود، وزعمه أنّه خلاف الحكمة هذا الاعتراض ودعواه أنّه صاحب حكمة هذا مردود، بل هذا الاعتراض صادر عن حَماقة وسفاهة ورعونة نفس، وجنون وكبر، وإعجاب بالنفس.

وهكذا كل من يعترض على أمرٍ من أوامر الله تعالى فهو كذلك قال تعالى ـ في الجاحدين المنكرين ـ: ﴿**أم تحسب أنَّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**﴾.

فالله تعالى أحكم الحاكمين وصفهم بأنّهم أضل من الأنعام، ﴿**ومَنْ أصدق من الله قيلاً**﴾.

ثانياً: إنّ دعوى إبليس أنّه مخلوق من النار ـ وهي لطيفة تطلب العلو يقال له ولتلامذته أدعياء الفهم والفكر: إنّ الملائكة خُلقوا من نور وهو ألطف من النار، وامتداد النور أوسع، وظهوره أسطع، فَلِمَ لَمْ يمتنعوا عن السجود؟ نعم لأنّهم ملائكة، آتاهم الله الحكمة الصحيحة، ولذلك استسلموا للأمر لما جاءهم، لأن الآمر هو الله تعالى الحكيم العليم، فإن أوامره وشريعته كلٌ ذلك صادر عن حكمته وعلمه المحيط بكل شيء.

قال تعالى: ﴿**حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم**﴾.

وقال تعالى: ﴿**حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم**﴾.

وقال تعالى: ﴿**حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**﴾.

فلو كان إبليس عنده شيء من الفهم والحكمة لوافق الملائكة في السجود لآدم عليه السلام، فإنه يعلم أنّ الملائكة هم أعلم بالله تعالى منه، وأعبد لله منه، وأخلص وأطهر وأنقى وأتقى، لكنْ دعواه الفهم وكِبْر نفسه وغروره بعبادته صَدّه وأعماه عن ذلك كله.

اللهم إنّا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونعوذ بك مِنْ شرور أنفسنا.

ثالثاً: إنّ آدم عليه السلام شرَّف الله تعالى خلقه روحاً وجسماً، فهو الذي خلقه الله تعالى بيديه سبحانه، وسَوّاه، ونفخ فيه مِنْ روحه، ولذلك قال الله تعالى ـ لإبليس ـ: ﴿**قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ**﴾ الآية.

وأشاد بذكر آدم عليه السلام قبل أنْ يخلقه، وأخذ العهد على الملائكة كلِّهم، وأعلمهم وأمرهم بالسجود لآدم فوراً متى كَمل خلقه.

قال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾.

فإذا بإبليس يعترض على الله تعالى، ويأبى ويستكبر، فأين فهمه وأين حكمته التي ادعاها، وأين عبادته التي كان مغروراً بها؟!!!

اللهم إنا نعوذ بك أن نُرد على أعقابنا، ونعوذ بك أن تُزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا يا مولانا، فإنك أنت العزيز الكريم الوهاب، فأنت أجل وأكرم من أنْ تَرجِع فيما وهبت، أو تسلب ما أنعمت.

ربنا أتمم علينا نعمتك، وأتمم لنا نورنا، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير.

رابعاً: إنّ الطين هو مركب من تراب وماء، وفي هذين الحياة والنمو والنبات، والاستقرار والثبات، فتضع الحبة في الطين فتنبت السنابل، وتضع النواة فتنبت لك الشجر ذات الثمر، وتضع فيه اليابس فيخضر، وأما النار فهي مُحرقة ومدمرة، وضررها كبير، وشرها مستطير، فإن شرارة منها تُحرق مزارع وبيوتاً، فما أتت على شيء إلا جعلته كالرميم ـ فأين المحاكمة العقلية الصحيحة التي ادعاها إبليس لما اعترض على أمر الله تعالى، وأين المحاكمة العقلية الصحيحة عند تلامذة إبليس الذين يعترضون على شريعة الله تعالى وأوامره وأحكامه في التحليل والتحريم؟!!

هذا وإنّ الرد على المعترضين على دين الله وشريعته بدعواهم الفهم والذكاء والبحث والإطلاع ـ الرد عليهم يحتاج إلى كلام طويل يقوم على البرهان والدليل وليس موضع تفصيله هنا ـ وقد ذكرت طرفاً من ذلك في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) ثم في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى معرفة الأكوان) فليرجع إلى ذلك.